



@Tafsircenter

آن سيلفي بواليفو

Anne-Sylvie Boisliveau

# حديث القرآن عن القرآن

## في السور المكية الأولى

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾

سُورَةُ النَّجْمِ ٤

سُورَةُ التَّكْوِينِ ٢٥

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

سُورَةُ الْقَلَمِ ٥٢



ترجمة : د/ مصطفى أعسو

www.tafsir.net

مركز دراسات القرآن والسنة  
Tafsir Center For Qur'anic Studies



مركز تفسير للدراسات القرآنية  
Tafsir Center For Qur'anic Studies



المعلومات والآراء المقدمة هي للكتاب، ولا تعبر  
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

## نبذة تعريفية بأن سيلفي بواليفو، Anne-Sylvie Boisliveaul:

آن سيلفي بواليفو<sup>(١)</sup> هي أستاذة محاضرة في تاريخ الأمم الإسلامية منذ نشأتها إلى القرن الخامس عشر بجامعة ستراسبورغ، مُتَخَصِّصَةٌ في الإسلاميات، وبنيات الاستدلال داخل النصّ القرآني، والنصوص المؤسّسة الأخرى (الحديث والسيرة والتفسير)، وفقه اللغة العربية، وتاريخ الإسلام، لا سيما القرون الثلاثة الأولى، والعلاقات الإسلامية المسيحية اليهودية، وعلاقة الإنجيل بالقرآن.

كما أنها عضوٌ جمعِيّةِ الدراسات القرآنية الدولية: International  
Qur'ānic Studies Association (IQSA)

أهمُّ مؤلفاتها:

- القرآن من خلال القرآن: مصطلحات وحجج الخطاب القرآني حول القرآن. وأصله أطروحتها للدكتوراه.

ومن أهم مقالاتها:

- حديث القرآن عن القرآن في السور المكية الأولى.

(١) انظر: ArchiMèdE - Archéologie et histoire ancienne ,Méditerranée, Europe

Université de Strasbourg.html

- وضعية مقاربات القرآن: المقاربات الأدبية، ضمن كتاب: «القراءة والتأويل: صلة الأديان بنصوصها المؤسسة».

- مقارنة نصّ مؤسس: الصعوبات، الحلول، الحدود، انطلاقاً من دراسة القرآن<sup>(١)</sup>.

- إعلان سلطة القرآن.. من خلال القرآن<sup>(٢)</sup>.

(١) هذه المقالة مترجمة على موقع تفسير، ترجمها: خليل اليماني، وهي منشورة ضمن ترجمات ملف الاتجاه التنقيحي، على قسم الاستشراق بموقع تفسير، على هذا الرابط:

[/https://tafsir.net/translation/8](https://tafsir.net/translation/8)

(٢) هذه المقالة كذلك مترجمة على موقع تفسير، ترجمها: مصطفى أعسو، وهي منشورة ضمن ترجمات ملف تاريخ القرآن، على قسم الاستشراق بموقع تفسير، على هذا الرابط:

[/https://tafsir.net/translation/32](https://tafsir.net/translation/32)

مقدمة<sup>(١)</sup> :

جَادَلْتُ آن سِيلْفِي بُوَالَيْفُو - مؤلفة المقالة - في أطروحتها للدكتوراه التي تقدّمت بها سنة ٢٠١٠م بعنوان: «القرآن من خلال القرآن» عن قوة تماسك البنية الاستدلالية للنصّ القرآني في سياق تأسيس حجّيته داخل الجماعة الإسلامية بصفته ملهم وجودها، ودستور وحدتها، وهادي حركتها، وخلافًا للاتجاهات التي حاولت بناء لحظة أخرى وفضاء آخر لتشكّل بدايات النصّ القرآني، فإنّ بُوَالَيْفُو ما فتئت تؤكّد أنّ النصّ القرآني - مهما تنازع الدارسون حول مصدره - فإنّه ينبىء عن تحكّم قوي قاصد إلى تقديم القرآن بصفته نصًّا موحى به من لدنّ الذات الإلهية، ومن أجل ذلك استعرضت بُوَالَيْفُو شبكة الصلات والوشائج التي يخبر فيها القرآن عن نفسه بهذه الصفة، لكن إذا كان هذا ما تهدي إليه الدراسة السانكرونية التي تتناول القرآن بوصفه نصًّا مكتملاً بغضّ النظر عن تنزله في الزمن؛ فإنّ بُوَالَيْفُو ما لبثت أن طرّحت سؤال القراءة الدياكرونية (التعاقبية أو التاريخية) للنصّ القرآني، هل سيّد القرآن حجّيته بوصفه وحياً منذ اللحظة الأولى لانبثاقه، أم كان هذا تطورًا لاحقًا في مسيرة النصّ؟

(١) قام بكتابة المقدمة وكذا التعريف بالأعلام الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات بموقع تفسير، وقد ميزنا حواشينا عن حواشي بُوَالَيْفُو بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات).

وهو السؤال الذي سوف يجرّها إلى اجترح هذه الدراسة التي بين أيدينا، والتي ركّزت فيها على السور المكيّة المبكّرة اعتمادًا على الترتيب التاريخي الإسلامي، ممثلًا في طبعة الأزهر، وترتيب المستشرق الألماني نولدكه.

والخلاصة التي توصلت إليها: أن تعبير الحجية لا يشمل ضرورة النصّ كلّ في البدء، ولم يُعرّف القرآن بصفته وحياً منزلاً منذ الوهلة الأولى كما عُرف فيما بعد، وأنّ الممتنّ القرآني كان ما يزال في طور التشكّل، إلا أن بواليفو توصلت كذلك إلى أن القرآن -في هذه المرحلة المبكّرة ذاتها- أبرز كونه قولاً ينتمي لمصدر مفارق، فعبر التفريق بين الذّكر والدعاء القرآني ومضمونهما من تحذير وبيان لقدرة الله من جهة وبين مصدر هذا الذّكر والدعاء من جهة أخرى، أو كما تقول: بين المحتوى والأجراً، وكذا عبر تحليل بعض السمات النصيّة مثل صوت النصّ والالتفات في الضمائر؛ تتوصّل بواليفو إلى أن القرآن يُظهر كونه قول الله ويفترض نقله بهذه الوضعية ذاتها لإبراز هذه الوضعية الإلهية تجاه مستمعيه، كما يبرز تجاه مستمعيه إلزاماً وطلباً للطاعة واستجابة للإنذار، وهي الملامح التي ستتجلى بصورة أكبر في المراحل اللاحقة من تاريخ النصّ كجزء من سلطته.

إنّ هذا الاشتغال الدقيق على أحد مراحل تاريخ النصّ له أهميته في إبراز الكثير من الملامح الأولى التي ظهرت بها سمات النصّ القرآني، كما أن لهذا الاشتغال المنطلق من تحقيق نولدكه لتاريخ القرآن، الملتزم به والذي كذلك في بعض الأحيان يميل لتقسيم المرحلة ذاتها إلى مراحل جزئية؛ فائدة مهمّة تتمحور حول إثارة سؤال عن مدى كفاءة هذا التحقيق، خصوصاً مع الالتزام به بكلّ حدّيّة، فما يبدو هو أن الالتزام الحدّي به يفضي لفرضيات واسعة حول أفكار النصّ، وأيّها ظهر منذ المراحل الأولى، وأيّها تأخّر لمرحلة لاحقة، وهي الفرضيات التي ستتغير تماماً لو تبينا طرقاً أخرى في التحقيق.

وبغض النظر عن نتائج هذا المقالة في ذاتها، فإن ما يشره اشتغال بواليفو الدقيق فيها حول أحد مرتكزات الدرس الاستشراقي للقرآن منذ نولدكه = هو أبرز ما يدفع لتسليط الضوء عليها.

المقالة (١)

يَتَكَوَّنُ حَدِيثُ نَصٍّ مَا عَنِ نَفْسِهِ مِنْ كُلِّ عُنْصُرٍ يَقْدُمُ مَعْلُومَةً عَنِ النَّصِّ نَفْسِهِ وَعَنْ مَصْدَرِهِ وَوَضْعِهِ وَوُضُوفِهِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْعَدِيدَ مِنْ مَظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ صَرِيحَةً تَارَةً، وَمُضْمَرَةً تَارَةً أُخْرَى. فَإِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ مَنْظُورٍ مُتَزَامِنٍ (سَانِكْرُونِي)<sup>(٢)</sup> - نَأْخُذُ فِيهِ بِكُلِّيَّةِ النَّصِّ - فَإِنَّهُ يَمْتَدُّ إِلَى مَظَاهِرٍ مُتَعَدِّدَةٍ تُشَكِّلُ اسْتِدْلَالَاً ثَرِيًّا لِإِثْبَاتِ السُّلْطَةِ الْقُدْسِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا النَّصِّ.

(١) نُشِرَتِ الْمَقَالَةُ ضَمَّنَ كِتَابِ: «الْقُرْآنُ: مُقَارَبَاتٌ جَدِيدَةٌ» Le Coran : Nouvelles Approches، مِنْ مَطْبُوعَاتِ الْمَرْكَزِ الْوَطْنِيِّ لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ بِبَارِيَسِ CNRS، وَالَّذِي أَعَدَّهُ وَأَشْرَفَ عَلَيْهِ مَهْدِي عَزِيز .Mehdi Azaiez.

وَالعنوان الأصلي للمقالة هو:

Le discours autoréférentiel dans les premières sourates mecquoises .pp. 291- 305  
جَدِيدٌ بِالنَّظَرِ أَنَّ التَّرْجُمَةَ الْحَرْفِيَّةَ لَعَنَوانِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ هِيَ خِطَابٌ ذَاتِي الْإِحَالَةِ لِلْقُرْآنِ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ الْأُولَى، وَقَدْ آثَرْنَا تَرْجُمَتَهَا بِحَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ الْقُرْآنِ؛ كَوْنِهَا التَّرْجُمَةُ الْأَكْثَرُ تَعْبِيرًا عَنْ غَرَضِ الْمُؤَلِّفَةِ فِي السِّيَاقِ الْعَرَبِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا تَسْعَى لِلنَّظَرِ فِي حَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ وَسُبُلِ تَشْيِيدِهِ لِمَرْجِعِيَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَقُولَاتِهِ هُوَ، لَا مِنْ خِلَالِ نِصُوصٍ أُخْرَى تُؤَسِّسُهُ بِوَصْفِهِ مَرْجِعًا أَوْ دَسْتُورًا، (الْمُتْرَجِمُ).

(٢) انظر بصدد هذه النقطة:

Madigan, Daniel A., The Qur'ān's self-image: writing and authority in Islam's scripture, Princeton, Princeton UP, 2001, 236p.

وَأَيْضًا:

Anne-Sylvie Boisliveau, Le Coran par lui-même. L'autoréférence dans le texte coranique .

=

يُعرَفُ الْقُرْآنُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ نَصٌّ مُقَدَّسٌ عَلَى غَرَارِ النُّصُوصِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَي كِتَابٍ مَنزَلٍ مِنَ اللَّهِ مُبَاشِرَةً عَلَى نَبِيِّ مَكَلَّفٍ بِتَبْلِيغِهِ<sup>(١)</sup>.

وَالْمَفَارِقَةُ أَنَّ الْقُرْآنَ يُوصَفُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ مَعْيَارٌ صِدْقِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ الْأُخْرَى، وَهُوَ مَا يَسْتَتَبِعُ ضَمْنِيًّا كَوْنَهُ الْكِتَابِ الْوَحِيدِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهَذِهِ السُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ<sup>(٢)</sup>.

بِخُصُوصِ هَذِهِ النُّقْطَةِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي يَقَدِّمُهَا الْقُرْآنُ عَنِ نَفْسِهِ تَبْدُو أحيانًا غَامِضَةً، أَوْ مُتَنَاقِضَةً، لَكِنِ التَّرْتِيبُ الْمُعْتَمَدُ لِأَجْزَاءِ النَّصِّ يَخْتَلِفُ عَنِ التَّرْتِيبِ الْمُفْتَرَضِ لظُهُورِهَا فِي الزَّمَنِ، وَقَدْ قَدِّمَتِ الرِّوَايَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْأَعْمَالُ الْجَامِعِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ قَوَائِمَ تَرْتِيبِ زَمْنِيٍّ لِنُزُولِ السُّورِ وَالْآيَاتِ، أَوْ أَشَارَتْ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي تَرُدُّ بِمُوجِبِهِ عُنَاوِينَ تَلُو أُخْرَى.

=

وهي أطروحة للدكتوراه نوقشت بجامعة إكس بروفنسال ١، سنة ٢٠١٠م، الجزء الأول، والثاني، (٥٨٠)، والتي طبعت فيما بعد تحت عنوان:

Le Coran par lui-même. Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, 2013.

(١) انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ص: ٢٨٨-٣٠٨.

(٢) نفسه.

كتب شتيفان فيلد *Stefan Wild*<sup>(١)</sup> في مقدِّمة العمل المشترك: «حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ» يقول:

إِنَّ مَا يُنْشِئُ الْغَمُوضَ فِي فَهْمِ حَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ هُوَ الرَّغْبَةُ فِي تَحْصِيلِ مَعْنَى وَحِيدٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ التَّطَوُّرِ الزَّمْنِيِّ لِلنَّصِّ<sup>(٢)</sup>.

انطلاقاً من هذا الإحساس عملت أثناء إنجاز أطروحتي<sup>(٣)</sup> على التحليل الدقيق لتطوُّر مُختلف أوجه حديث القرآن عن نفسه على امتداد التطوُّر الزماني المفترض للنصِّ، وأنا هنا أعرضُ بعض عناصرها<sup>(٤)</sup>.

(١) شتيفان فيلد (١٩٣٧- )، أحد أبرز أعلام الاستشراق الألماني، حاصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ميونيخ عام ١٩٦١، وعمل كرئيس للمعهد الألماني للدراسات الشرقية ببيروت منذ ١٩٦٨ وإلى ١٩٧٤، وهو أستاذ اللغات السامية والدراسات الإسلامية في جامعات؛ أمستردام، ورينيش فريدريش فيلهلمز في بون، وقد بقي في الأخيرة حتى تقاعده في ٢٠٠٢. له عدد من الكتابات المهمة، من أهمها: القرآن كنصّ، ١٩٩٦، وكتاب: المرجعية الذاتية في القرآن، ٢٠٠٦، وقد ترجمنا له ثلاث محاضرات كان قد ألقاها في جامعة هارفرد ضمن برنامج هاملتون جب في ٢٠١٠، وهي: "تاريخ القرآن، لماذا لا نحرز تقدماً؟"، "لغة القرآن، هل العربية لغة مقدّسة؟"، "القرآن اليوم، لماذا نترجم ما لا يقبل الترجمة؟"، ترجمة: حسام صبري، يمكن مطالعتها على قسم الاستشراق بموقع تفسير.

كما ترجمنا عرضاً لكتاب يتصل بموضوع المقالة وهو كتاب: "القرآن بوصفه نصّاً"، كتبه: دانييل ماديفان، ترجمة: هدى عبد الرحمن النمر، منشور ضمن الترجمات المتنوعة على قسم الاستشراق بموقع تفسير. (قسم الترجمات).

(٢) انظر:

Wild, Stefan, Self-Referentiality in the Qur'ān, Wiesbaden, Harrassowitz, 2006, p. 19-20.

إنَّ اختيار التَّرتيب الزَّمَنِي الأَرْجَح احتمالاً لم يكن أمراً يسيراً، فالفرضيات التي تَقَدَّم بها المستشرقون والباحثون متعدّدة، مثلها في ذلك مثل القوائم التي نقلها التراث الإسلامي<sup>(٣)</sup>. وقد اختَرْتُ أن أُؤسِّس عملي على قائمتين تُمثِّلان كلا الاتجاهين هما: قائمة مُصحف الأزهر<sup>(٤)</sup>، وقائمة تيودور نولدكه<sup>(٥)</sup>.

=

- (١) يتعلّق الأمر بأطروحتي للدكتوراه، مرجع سابق، وللتدقيق أقول إنَّ الترجمات الواردة في هذا المقال هي من عملي، استلهمت فيها على نحوٍ واسعٍ من المترجمين الفرنسيين: بلاشير وماسون، وبيرك.
- (٢) نشرت آن سيلفي بوليفو الجزء الأول من أطروحتها والخاصّ بالدراسة التزامنية للنصّ في ٢٠١٥، في كتاب بعنوان: "القرآن من خلال القرآن: مصطلحات وحجج الخطاب القرآني حول القرآن"، وقد نشرنا عرضاً مترجماً لهذا الكتاب، كتبه: ميشيل كويرس، ترجمة: أمينة أبو بكر، منشور ضمن ترجمات ملف الاتجاه التزامني في دراسة القرآن، على قسم الاستشراق بموقع تفسير. (قسم الترجمات).
- (٣) انظر بخصوص الفرضيات الجامعية: بوليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ص: ٣٩٩-٤٠٠. وبخصوص الفرضيات التقليدية، انظر:

Robinson, Neal, Discovering the Qur'an: a contemporary Approach to a Veiled Text , Washington D.C., George town University Press, 2003, p. 69.

وأيضاً:

Le Coran : Texte arabe et traduction française par ordre chronologique selon l'Azhar avec renvoi aux variantes, aux abrogations et aux écrits juifs et chrétiens, par Aldeeb Abu-Sahlieh, Sami Awad, Vevey, Editions de l'Aire, 2008, p. 14.

(٤) انظر: Robinson, Neal, Discovering the Qur'an : مرجع سابق، ص (٧٢-٧٤).

(٥) انظر:

Nöldeke, Theodor, Geschichte des Qorans, 1860. (Révisé par Schwally, Friedrich, Bergsträsser, Gotthelf, Pretzl, Otto, Leipzig, 1919-1938.

(٦) تيودور نولدكه، (١٨٣٦-١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عددًا من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيرانية، وآرامية الكتاب المقدس، ثم درس - وهو طالب في الجامعة - الفارسية والتركية، عمل أستاذًا في جامعة كيل ثم جامعة اشترايبورج.

=

على أن استعمال هاتين القائمتين لا يُسَعْفُ بتفادي بعض المُشكلات، فضلاً عن مصداقيتهما - مشكلة مبررات الاختيار بالنسبة إلى قائمة الأزهر بين قوائم عديدة مأثورة ومصداقية نقلها، وبالنسبة إلى قائمة نولدكه مشكلة الفرضيات التي تبلورت جزئياً انطلاقاً من الموضوعات - فإن القضية الأهم تتمثل في احتمال استعادة مقاطع قديمة، واحتمال وقوع تصحيحات، وغيرها.

وعليه فإن العمل على دراسة التطور الزمني (المنظور الدياتروني) كان ينبغي أن يجري بكثيرٍ من الحيطة والحذر، وقد عملتُ بشكلٍ واسعٍ ومرنٍ على ترتيب السور حسب مراحل زمنية، مؤسّسة عملياً على العناصر الأكثر يقيناً، ومتى ما بدا لي أن سورة ما لا تتساقق في معظم عناصرها مع السور الأخرى

=

وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها.

وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه برجستراسر ثم برتزل.

كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفسير الكتاب المقدس أثناء عمله معيداً في جامعة جيتنجن، له إلى جانب كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتب حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية». كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

المتنمية إلى نفس المرحلة؛ فَإِنِّي لَا أُسْتَكِفُّ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا، بِيَدِ أَنِّي نَبَهْتُ عَلَى الْمَشْكَلَةِ، وَأَثَرْتُ مَعْطِيَاتٍ تَوْرَثُ الْيَقِينِ أَكْثَرَ<sup>(١)</sup>.

اخترتُ - في سياق مُداخَلتي الحَالِيَةِ - أَنْ أُعْرِضَ نَتَائِجَ تَحْلِيلِ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى لِلنَّصِّ، فَحَدَّدْتُ مَرَحَلَةَ أُولَى تَضَمُّ السُّورِ الثَّلَاثَةَ وَالثَّلَاثِينَ الْأَقْدَمَ وَفَقًّا لِتَرْتِيبِ مَصْحَفِ الْأَزْهَرِ، وَالَّتِي أَدْرَجَهَا نَوْلِدْكَهَ ضَمَّنَ الْمَرَحَلَةَ الْأَكْثَرَ قَدَمًا<sup>(٢)</sup>.

بَحِثْتُ عَنِ عُنَاوِرِ حَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ - عَنِ الْمَعْجَمِ الْمُرْتَبِطِ بِمُخْتَلَفِ مَوْضُوعَاتِهَا، وَعَنِ تَطَوُّرِ الْإِسْتِرَاتِيجِيَّاتِ السَّاعِيَةِ إِلَى إِرْسَاءِ صُورَةٍ عَنِ النَّصِّ -، أَعْنِي كُلَّ مَا يَوْلَدُ لَدَى السَّامِعِ أَوْ الْقَارِئِ تَصَوُّرًا خَاصًّا عَنِ مَاهِيَةِ الْقُرْآنِ وَمَاهِيَةِ النَّصِّ الْمُعْلَنِ.

(١) انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، الجزء الثالث.

(٢) يتعلق الأمر بالسور ٩٦، ٦٨ (توافق ١٨ حسب نولدكه)، و٧٣ (توافق ٢٣ عند نولدكه)، و١١١، ٨١ (٢٧ عند نولدكه)، و٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٥٣ (المرتبة ٢٨ عند نولدكه)، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧.

## وجود نوعين من النصوص:

### واجبان:

يَتَبَيَّنُ من استقصاء ما قيل عن «نوعي النصوص» أن الأمر يتعلّق في المراحل الزمنية الأولى بسلسلة من الأوامر والتكاليف، يوجهها «صوت النصّ» -الذي يُسمَعُ على أنه صوت الله- إلى شخصيات.

هذه الأوامر على ضربين:

هناك تلاوة تعبدية؛ حيث يأمرُ اللهُ شخصًا -وهو محمد ضمناً وجماعته- بالترتيل قصد التعبد.

يُعبّر عن هذا خاصّة من خلال طريقتين:

- إما عبّر استعمال أفعال الأمر، مثل فعل (اقرأ) الذي يُعدُّ عمومًا، لا سيما في الروايات المأثورة، أول كلمة من المصحف وفق الترتيب الزمني<sup>(١)</sup>، وتعني (اتل باسم ربك)، أو (اذكر اسم ربك)<sup>(٢)</sup>.

(١) الآية رقم ١ من سورة العلق.

(٢) بخصوص هذه الفرضية الأخيرة، التي يتعلّق الأمر فيها بكلّ وضوح بدعوة إلى الدعاء، لا بالإرسال في إطار مهمة دعوية. انظر:

Cuypers, Michel : «Structures rhétoriques des sourates 85 à 90», Annales Islamologiques , 35, 117, 2001.

وأيضًا:

Cuypers, Michel, Gobillot, Geneviève, LeCoran, Paris, Le Cavalier Bleu (coll. Idées reçues), 2007, p. 38-39.

وها هنا أمثلة أخرى لهذه الأفعال:

(يا أيها المزمل... ترتيلاً)<sup>(٢)</sup>.

تأمّر هذه الأفعال بذكر الله، أو تسيّحه، أو ترتيل تلاوة ما.

إنَّ أوامر أخرى مثل (قم)، و(انقص) من مدة صلاتك، أو (زد)، أو (ثيابك فطهر)، كل ذلك يستدعي قواعد شعيرة تعبدية.

- أو عبر الاستعمالات الأربعة والحصرية للفظ قرآن<sup>(٣)</sup>، حيث يَصِفُ هذا اللفظ تلاوة شعائرية واجبة الأداء، من حيث هي تلاوة صادرة عن الله.

=

(١) المعنى الذي عليه المفسرون هو الأول وأن القراءة بمعنى التلاوة، وأما المعنى الثاني فقد ذكره اللغوي الشهير أبو عبيدة وجري نقده من كبار المفسرين. (قسم الترجمات).

(٢) الآيات من ١ إلى ٤ من سورة المزمل.

(٣) الآيتان ٤ و ٢٠ من سورة المزمل؛ الآية ٢١ من سورة البروج؛ الآيتان ١٧ و ١٨ من سورة القيامة.

## التذكير بأفعال الله جهراً:

يأمر صوت النصّ أيضاً شخصاً - وهو محمد - بذكر الله وفعله، وذكر حساب اليوم الآخر، وذلك بين ظهрани الذين حادوا الله، أو نسوا الله ضمناً، أو نسوا أفعال الله.

يجري التعبير عن هذا كما يلي:

- إمّا من خلال توجيهات تأمر محمداً بأن يَذكر (اذكر)<sup>(١)</sup> دون مطاوعة الجاحدين أو المعرضين في مثل: (لا تطعه)<sup>(٢)</sup>، و(سلهم)<sup>(٣)</sup>.

- أو من خلال استعمال لفظة ذَكر (= تذكر، تنويه)<sup>(٤)</sup>، ومرادفاتهما القريبة منها: تذكرة<sup>(٥)</sup>، وذكرى<sup>(٦)</sup>، يَصِلُ مجموع المناسبات التي ورد فيها جذر (ذكر) في هذه المرحلة إلى ثلاث وعشرين مرة.

(١) الآية ٨ من سورة المزمل؛ الآية ٩ من سورة الأعلى، ثم انظر - وإن كانت في مرحلة ثانية - سورة القمر.

(٢) الآية ١٩ من سورة القلم.

(٣) الآية ٤٠ من سورة القلم.

(٤) الآيتان ٥١، ٥٢ من سورة القلم؛ الآية ٢٧ من سورة التكويد؛ الآية من سورة الشرح؛ الآية ٢٩ من سورة النجم؛ الآية ٥ من سورة المرسلات.

(٥) الآية ١٩ من سورة المزمل؛ الآيتان ٤٩، ٥٤ من سورة المدثر؛ الآية ١١ من سورة عبس.

تُومئُ هذه الألفاظ من جهة إلى كلامٍ يُراد به التحذير من قدرة الله المطلقة  
ومن يوم الحساب.

ومن جهة أخرى، تشبّه هذا التذكير بكلام رسول - من يدري لعله ملاك؟  
- رآه محمد لا بكلام شيطان، وهذا ما يبدو أن الآية التالية تفرضه وتؤكدّه  
الروايات المأثورة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يُوردُ النصُّ القرآني في اللحظات الأولى من إعلانه نوعين من  
النصوص:

- من جهة، هناك التلاوة التعبديّة، والدُّعاء المطلوب التلفظ به.  
- ومن جهة أخرى، هناك ذكرُ أفعال الله التي على محمد أن يتحدّث بها،  
وهو الذِّكر أو التذكير الذي يتوجب إعلانه حتى يتذكر محيطه، لا سيما أولئك  
الأشخاص الذين لا يستجيبون، والذين يعترضون على الله.

لم يَكْذِبْ مَرٌّ إِلَّا زَمَنٌ قَصِيرٌ فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ الصَّلَاةَ،  
الدُّعَاءَ، وَالذِّكْرَ قَدْ أَتَى مِنَ اللَّهِ، أَوْ مِنْ رَسُولِهِ (من يدري لعله ملاك؟)، وخاصةً

(١) الآية ٩ من سورة الأعلى؛ الآية ٢٣ من سورة الفجر؛ الآية ٤ من سورة عبس. ثمّة مناسبة أخرى في  
الآية ٣١ من سورة المدثر، لكن هذه الآية قد عدّت من قبَل نولدكه آية مدرجة في زمن لاحق.  
(٢) سورة التكوير.

أَنَّ هَذِينَ النُّوعِينَ مِنَ النُّصُوصِ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنْهُمَا بِوَصْفِهِمَا نَصِّينَ، بَلْ بِوَصْفِهَا أفعالاً كلف الله بهما.

### غياب معظم خصائص حديث القرآن عن نفسه من منظور متزامن:

خِلالِ مُتَابَعَتِي لِلْبَحْثِ عَنِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْكَلَ خُطَابًا حَوْلَ النَّصِّ، وَلَا سِيَّما حَوْلَ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ تَلَاوَةِ مُحَمَّدِيَّةِ، لَاحَظْتُ أَنَّ أَهَمَّ عُنَاوِرِ حَدِيثِ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي أَجْزَاءِ مُتَأَخَّرَةٍ جَدًّا، قَدْ غَابَتْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْقَدِيمَةِ.

وَأَقْصِدُ بِهَذِهِ الْعُنَاوِرِ كُلِّ مَا يُمَيِّزُ حَدِيثَ الْقُرْآنِ عَنِ نَفْسِهِ حِينَما نَتَنَاوَلُهُ تَنَاوُلًا مُتَزَامِنًا (سَانِكْرُونِيًّا)، أَيِّ مِنْ حَيْثُ هُوَ كُلُّ مُجْتَمَعٍ، وَهَذِهِ مَلاحِظَاتِي عَنِ كُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ هَذِهِ الْعُنَاوِرِ:

بَادئِ ذِي بَدْءٍ، لَمْ يُوَصِّفْ دُورَ مُحَمَّدٍ بِاعْتِبَارِهِ وَوِظِيفَةَ نَبِيَّةِ، وَلِلفِظِ (آيَاتِ) الَّذِي أَطْلَقَ فِيما بَعْدَ لِلدَّلالةِ عَلَى الإِشَارَاتِ الْعَظِيمَةِ الْمُرَافِقَةِ لِلنَّبِيِّ<sup>(١)</sup>، لَمْ تُذَكَرْ هَا هُنَا إِلا مُتَصلَةً بِأَفْعَالِ اللَّهِ، فِي ثَلَاثِ مَناسِبَاتٍ:

﴿ إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ إِبْنُنَا قَالَا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْفَرْطُورِ ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ص: ٤٤٩-٤٥٠، ٤٥٨، ٤٩٣-٤٩٤.

(٢) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة القلم.

﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانَا عِنْدًا ﴾ (١٦)

يُظْهِرُ هَذَانِ الْمَقْطَعَانِ مَبْكَرًا بِحَسَبِ تَرْتِيبِ الْأَزْهَرِ - السُّورَتَانِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ -، وَبَعِيدًا شَيْئًا مَا بِحَسَبِ تَرْتِيبِ نَوْلِدِكِهِ، وَلَكِنَّهُمَا يَتْتَمِيَانِ دَوْمًا إِلَى الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ الْأُولَى.

فِي الْمُنَاسِبَةِ الثَّلَاثَةِ، وَالتِّي تَأْتِي فِي الرِّتْبَةِ الثَّلَاثَةِ وَالْعِشْرِينَ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ الْأَزْهَرِ، وَالثَّمَانَةَ وَالْعِشْرِينَ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ نَوْلِدِكِهِ، نَجِدُ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِعُنَاوَرِ أَرَاهَا اللَّهُ مُحَمَّدًا:

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (١٨)

الْمَقْطَعِ الْوَحِيدِ الَّذِي يُؤْمَى إِلَى مُحَمَّدٍ بِوَصْفِهِ نَبِيًّا هُوَ: الْآيَةُ رَقْمَ ١٥ مِنْ سُورَةِ الْمَزْمَلِ، حَيْثُ يَضَعُ لَفْظُ (رَسُول) مُحَمَّدًا جَنْبًا إِلَى جَنْبِ مَعِ مُوسَى.

نَجِدُ فِي الْآيَةِ رَقْمَ ١٩ مِنْ سُورَةِ التَّكْوِيرِ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (١٩)، وَالْأَمْرُ فِيهِ كَمَا نَوَّهَتْ بِهِ أَعْلَاهُ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِمَلَائِكَةٍ، لَا بِمُحَمَّدٍ، وَنَجِدُ فِي مَقْطَعِ آخِرِ أَنْ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ قَوْمِ ثَمُودَ.

(١) الآية ١٦ من سورة المدثر.

(٢) الآية ١٨ من سورة النجم.

وعلى الرغم من ذلك، يُبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ مِنْذُ الْبَدَايَةِ أَنَّ النَّصَّ يَدَافِعُ عَنِ مُحَمَّدٍ ضِدَّ هِجَمَاتٍ تَسْتَهْدَفُ شَخْصَهُ، مُجَادِلًا بِأَنَّهُ لَيْسَ بِصَرِيحٍ لِسِحْرِ سَاحِرٍ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ مَا يَبَيِّنُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ فِيْمَا مَضَى دَوْرٌ خَاصٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِي مَعَاصِرِيهِ.

إِنَّ أَفْعَالَ مِثْلَ: (اتل)، و(نبئ)، والتي ستشير فيما بعد إلى نَمَطِ تَبْلِيغِ النَّبِيِّ لِمُحِيطِهِ، قَدْ اسْتَعْمَلَتْ اسْتِعْمَالًا مَحْدُودًا خِلَالَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ.

يَصِفُ (نبئ) فَعَلَ اللهُ، لَا فَعَلَ مُحَمَّدًا، كَمَا أَنَّ مَفْهُومَ التَّحْذِيرِ حَاضِرٌ مِنْذُ الْبَدَايَةِ مَعَ جِذْرِ «ن ذر»، لَكِنْ فِي أَرْبَعِ مَقَاطِعٍ فَقَطْ:

فِي الْآيَةِ رَقْمِ ٢ مِنْ سُورَةِ الْمَدْثَرِ أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ بِأَنْ يَقُومَ وَيَنْذِرَ، وَفِي الْآيَةِ رَقْمِ ١٤ مِنْ سُورَةِ اللَّيْلِ، حَيْثُ يُحَذِّرُ اللهُ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ فِي الْآيَةِ رَقْمِ ٥٦ مِنْ سُورَةِ النَّجْمِ، وَالْآيَةِ رَقْمِ ٦ مِنْ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ الْمَتَأَخَّرَتَيْنِ جَدًّا، وَاللَّتَيْنِ لَا تَتَّصِلَانِ بِمُحَمَّدٍ صِرَاحَةً.

اسْتُعْمِلَتْ بَعْضُ الْأَفْعَالِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُبْلَغُ (أتى، جاء)، لَكِنِهَا نَادِرَةٌ، وَالْأَفْعَالُ الَّتِي تَتَّصِلُ بِالتَّبْلِيغِ الَّتِي نَهَضَ بِهَا مُحَمَّدٌ تَشِيرُ إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بِشَعِيرَةٍ تَعْبُدِيَّةٍ، أَوْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَنِعْمِهِ.

لَمْ يَظْهَرِ لَفْظُ (بلاغ) فِي الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ فِي حُدُودِ تَرْتِيبِ نَوْلِكَه.

أَمَّا فِعْلُ قَرَأَ فَلَيْسَ مَوْضُوعَهُ (الْقُرْآنَ) فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى؛ إِذَا قُتِرْنَا بِعِبَارَةِ (اسْمِ رَبِّكَ) فِي السُّورَةِ الْأُولَى، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ مَوْضُوعٍ فِي الْمُنَاسِبَاتِ الثَّلَاثِ الْأُخْرَى.

اسْتَعْمَلَ فِعْلَ (حَدَّثَ) فِي الْآيَةِ رَقْمَ ١١ فِي خَتَامِ سُورَةِ الضُّحَى قَصْدُ أَمْرِ مُحَمَّدٍ بِيَانِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَهِيَ سُورَةٌ قُرْآنِيَّةٌ مَوْغَلَةٌ فِي الْقِدَمِ، تُذَكِّرُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَوَلَّى بِهَا اللَّهُ رِعَايَةَ مُحَمَّدٍ فِي مَرَاكِلِ عَمْرِهِ.

عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، فَمَفْهُومُ الشُّرْكَ، أَوْ تَعَدُّدِةِ الْآلِهَةِ، وَالَّذِي يُمَثِّلُ مِنْ مَنْظُورٍ مُتَزَامٍ مَا كَانَ النَّبِيُّ قَدْ أَمَرَ بِمُقَاوَمَتِهِ، مَفْهُومٌ شَبَّهَ غَائِبٍ، وَالْجَذْرُ «ش ر ك» لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي الْآيَةِ رَقْمَ ٤١ مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ، لَكِنْ هَذَا الْمَقْطَعُ يُمَكِّنُ تَأْوِيلَهُ عَلَى أَنَّهُ يَوْمِيٌّ إِلَى شُرَكَاءِ يِعَاوَنُونَ الْمَكْدُبِينَ، وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ إِلَى آلِهَةٍ أُخْرَى.

بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، لَا يَشْتَمِلُ النِّصُّ عَلَى مَفْهُومِ (الْوَحْيِ الْقُرْآنِيِّ) كَمَا وَصَفَ فِيمَا بَعْدَ.

تَبْدُو أَنْمَاطُ الْوَحْيِ الْحَاضِرَةِ فِيمَا بَعْدَ فِي الْقُرْآنِ جَذْرَ «و ح ي»، وَ«ن ز ل» شَبَّهَ غَائِبِيَّةً فِي الْأَجْزَاءِ الْأَقْدَمِ مِنَ النِّصِّ.

وَالْإِشَارَاتُ الْوَحِيدَةُ إِلَى جَذْرِ «و ح ي» فِي مَرَحَلَتِنَا الْأُولَى هِيَ الْآيَتَيْنِ رَقْمَ ٤ وَرَقْمَ ١٠ مِنْ سُورَةِ النِّجْمِ. هَذَا تَعْمَالًا لِأَنَّ يَتَعَانُ فِي سُورَةٍ خَاصَّةٍ، تَصِفُ

تجربة اتصال محمد بالله، إنها السورة الثالثة والعشرون، حسب الترتيب التقليدي، والسورة الثامنة والعشرون بحسب نولده الذي يضعها ضمن المرحلة المكية الأولى.

النَّمطُ الثاني من الوحي-النزول، الذي يعبر عنه جذر «ن ز ل» هو الآخر غائبٌ في السور الأكثر قدمًا، إذا لم نستثنِ مقطعين:

الأول هو الآية رقم ١ من سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

وقد افترض المفسرون التقليديون أن ضمير الغائب في (أنزلناه) يحيل على القرآن، لكن الآية الرابعة تستعمل فعلاً من نفس الجذر لتدقيق أن الأمر يتعلّق بنزول الملائكة والروح في الليلة نفسها ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ

كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾!!<sup>(١)</sup>

هنا أيضًا يوجد المقطع الأخير الذي استعمل لفظ «ن ز ل» في سورة النجم، بعد الذي أتينا على ذكره بخصوص الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ

(١) الآية ٤ من سورة القدر.

﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴿١﴾.

أخيراً، وبصفة خاصّة، لا يظهر مفهوم الكتابة المقدّسة<sup>(٢)</sup>، ولفظ (كتاب) لم يستعمل إلا مرتين<sup>(٣)</sup>، مُشيرًا إلى كُتُبِ أُخْرَى، وليس إلى النصّ الحاضر، وعلاوة على ذلك، فهاتان الآيتان قد عُدَّتَا من قِبَل نولدكه متأخرتين جدًّا، وهو ما تقرّه بعض الآثار جزئيًّا.

المحتوى الموضوعي لحديث القرآن عن نفسه في هذه المرحلة الأولى من التطوّر الزمني للنصّ بعيدًا إذاً عن الحديث عن النفس كما يمكن أن نتصورها خلال منظور متزامن للنصّ<sup>(٤)</sup>.

إِنَّ الْأَمْرَ فَعَلًا لَا يَتَعَلَّقُ بِمُصْحَفٍ يَنْتَظِمُ كُلَّ الْأَقْوَالِ دَاخِلَ حُدُودِ ثَابِتَةٍ، وَلَا بِكِتَابَاتٍ مُقَدَّسَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّ حَقِيقِيَّ!!

(١) الآيات من ١٠ إلى ١٤ من سورة النجم.

(٢) بخصوص مفهوم الكتابة المقدّسة، انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ص: ٧٠-٥٦.

(٣) الآية ٣١ من سورة المدثر، الآية ٣٧ من سورة القلم.

(٤) انظر تفاصيل العناصر المكونة للإحالة الذاتية القرآنية من منظور متزامن في: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ج ١، و ج ٢.

## التفرقة بين المحتوى وإستراتيجية البرهنة على أن القرآن كلام الله (الأجراً):

أَتَاحَ لِي الْإِسْتِقْصَاءَ الْأَوَّلَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ فِعْلِ أَمْرٍ (أَذْكَرُ) وَفِعْلِ أَمْرٍ (أَدْعُ)،  
ثُمَّ تَفْرِقَةَ أُخْرَى فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى نَفْسَهَا سَتَتِيحُ تَحْلِيلًا أَعْمَقًا.

لننطلق من سؤال بسيط:

ما هو إذاً محتوى هذا الدعاء وهذا الذكر الذي يُطلب من الشخص التلفظ

به؟

نَجِدُ الْإِجَابَةَ فِي الْعُنَاوَةِ الْأُخْرَى مِنَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى لِلنَّصِّ<sup>(١)</sup>: إشارات  
إلى أفعال الله، وإلى قدرته المطلقة، وما أوقعه في الماضي (بصورة محدودة)،  
وما بثّه في الطبيعة (ما يزال في هذه المرحلة قليلاً، ويردُّ على شكل أَيْمَانٍ)، ثم  
ذكر اليوم الآخر، أي ما سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَخِيرًا، وَخَاصَّةً، سَخَطَ اللَّهُ عَلَى  
كُلِّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَنِ النَّظَرِ فِي هَذَا كَلِّهِ وَلَا يَتَذَكَّرُونَهُ.

ينبئ النصُّ كلاً من السامع والقارئ عن مرادات الله من خلقه:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَتَصَرِّفُ الْمَهِيْمُنُ عَلَى الْخَلْقِ وَالْعَالَمِ، وَيَعَاقِبُ الَّذِينَ  
لَا يُوقِّرُونَ اللَّهَ، وَيُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحِيْطُوا عِلْمًا بِهَذَا كَلِّهِ، وَيَتَعَرَّفُوا عَلَى  
أَفْعَالِ اللَّهِ.

(١) من أجل تفصيل أكثر تركيباً لمراجع كل عنصر انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع

سابق، ص ٤١٤-٤٤٠.

غير أنَّ هذا النصَّ هو نفسه الذي وصف به (ذكر)، من خلال استعمال (ذكر)، و(تذكرة)، و(ذكرى) في النصِّ المحيط.

يدعونا النصُّ إذاً إلى أن نرى أنَّ الأمرَ إنّما يتعلَّقُ بمضمون التذكير الذي على محمد أن يُلقِي به بين يَدَي خُصُومِهِ ومُعارِضِيهِ.

وعلى غِرَارِ ما سبق، يتعيَّن أن نُدرِجَ بعض العناصر المتّصلة بمضمون (الدعاء) في بعض المقاطع مثل سورة الفاتحة التي صيغت صيغةً طلبيةً. على أنَّ ما يتصل بالدعاء لم يشغل إلا قسماً أقلَّ أهمية بكثير من القسم المتعلِّق بالتذكير.

ميزتُ إذاً بين نوعين من النصوص بحسب وظائفهما:

من جهة، هناك مضامين التذكير والدعاء، ومن جهة ثانية هناك النصوص التي تعمل على أجرأة الأولى، أي تلك التي تبني أن هذه المضامين هي على التوالي ذكر ودعاء.

اخترتُ توفيراً للجهد أن أُطلقَ «النص  $\alpha$ » على مضمون الذِّكر، و«النص  $\beta$ » على الجزء من الخطاب الذي يعمل على أجرأة النصِّ  $\alpha$  نصِّ الذِّكر.

كما أطلقتُ عبارة «النص  $\alpha'$ » على محتوى الدعاء التبعُّدي الذي يطلب من الشخص المُخاطَب الإتيان به، وأطلقتُ عبارة «النص  $\beta'$ » على النصِّ الذي ينقله إلى حيِّز الفعل.

## هل وصف النصُّ نفسه بأنه كلام الله؟

إذا انطلقنا من منظور المؤمنين، ومن قراءة متزامنة فإنَّ النصَّ جميعه يُعدُّ كلام الله من مُبتداه إلى مُنتهاه. لكنني اخترتُ أن أتساءل هاهنا عمَّا إذا كان هذا الجزء من النصِّ يُخبرُ عن نفسه بأنه كلامُ الله أولاً، ثم عن الوسائل التي يقع بها هذا الإخبار.

إن التمييزَ المُشار إليه أعلاه سيُعين على الإجابة عن هذا السؤال، فلننظر بأبي معلومات يزودنا بها النصُّ بخصوص النصين  $\alpha$  و  $\beta$ .

### النص $\beta$

في النص  $\beta$ ، نصَّ الأجرأة، جملةً من الأوامر، مثلاً: إقرأ:

فهذه الأوامر تُؤدي وظيفةً مُزدوجة في حديث القرآن عن نفسه:

- وظيفة إثبات أن هذا النص  $\beta$  هو ما يقوله الله، ومع ذلك، فإن هذا لا يتعلَّق بكلِّ مقاطع  $\beta$ ، بل يختصُّ فقط بتلك التي تتضمن أوامر.

- وظيفة إظهار أن النصَّ  $\alpha$  هو كلام الله في حالٍ ما إذا كان فعل الأمر يتصدرُ النصَّ  $\alpha$ .

وهكذا، فإنَّ النصَّ  $\beta$  لا يوصف بأنه كلام الله ما لم يشتمل على هذه الأوامر.

## النص α

إنَّ النصَّ α، مضمون الذِّكْر (والنصَّ α 'محتوى الدعاء) ليس لأوّل وهلة كسابقه.

إذا كان النصّ يحدّد لنا بادئ ذي بدء أنّ نصّ الذِّكْر هو ذِكْرٌ لأفعال الله التي على محمد أن يُعلنها؛ فإنّ لنا أن نتساءل:

هل هذا النصّ -نصّ الذِّكْر- هو ما طلب الله تبليغه بالضبط وذلك انطلاقاً من النصّ نفسه؟

من جهة أخرى، وفي هذه المرحلة الأولى، هل يُعْتَبَرُ الله هو من أوحى هذا الذِّكْر بالضبط؟

لقد قيل في البداية، وبكلّ بساطة: إن الأمر آتٍ من الله، وليس نصّ الذِّكْر.

لنعالج هذين العنصرين بهذا الصدد:

**العنصر الأول:** هو تناوب الضمائر الشخصية (=الالتفات)، التي تشير

إلى الله. نَجِدُ أنّ الإشارة إلى الذات الإلهية في النصّ α نصّ المحتوى، تتمُّ إمّا عبر الضمير الأول (نحنُ)، أو أنا أو ضمير الغائب (هو).

منطقيّاً، وعندما يتعلق الأمر بضمير الغائب؛ فإنه من الصعب أن يخطر

على بالنا أنّ المتكلم هو الله، فلعله يتعلّق بـ(صوت النصّ)، لا نملك من ثمّ أن

نستنتج أنّ النصّ α هو ما قاله الله.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه يتكوّن عند القارئ والسماع بخلاف ما سبق انطباع بأن النصّ الذي يشير إلى الله قد تكلم به الله نفسه.

ويرجع هذا إلى المظهر السلطوي لصوت هذا النصّ والمحيط علمًا بكلّ شيء، وإلى التناوب السريع بين وضعيات الخطاب، بل يعود أيضًا إلى التناوب بين النصّ  $\alpha$  والنصّ  $\beta$ ، الذي يتضمن -كما أوضحت آنفًا- أوامر تلقي في الرُوع أن المتكلّم هو الله.

وهكذا، فإنّ مجاورة النصّ  $\alpha$  للنصّ الذي يعمل على أجرأته هو ما يولّد لدى السامع والقارئ فكرة أن الله هو المتكلّم، حتى لو تعلّق الأمر بضمير الغائب.

العنصر الثاني: يتمثّل في أننا، وفي أربعة مقاطع قصيرة، نجد أن النصّ  $\alpha$ ، نصّ الذكر، أو  $\alpha$ ، نصّ الدعاء، قد تصدّره فعل الأمر (قل) من النصّ  $\beta$ . وعلى سبيل المثال سورة الكافرون<sup>(١)</sup>:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

(١) سورة الكافرون، والمناسبات الأخرى تجدها في سورة الإخلاص، وسورة الفلق، وسورة الناس. هاتان الأخيرتان متعلقان مسبقًا بالدعاء أكثر من تعلقها بالذكر. ينضم إلى هذا مناسبتان في سور لا تقع في البداية بحسب ترتيب الأزهر، لكنها تصنف ضمن المرحلة الأولى بحسب تولدكده: ٥٦، و٥٢.

إذا كان النصّ المائل بين أيدينا هو التلاوة التي نطقَ بها محمد، فينبغي ألا يسبقها فعل الأمر (قل). بيد أنه وبالعكس، فإنّ النصّ يَمْنَحُنَا هنا الكلام الأصلي.

إنّ الذي بين أيدينا الآن ليس فقط النصّ الذي يتلّوه محمد، بل هذا النصّ المسبوق بأمرٍ يلقي في الرّوع أن الكلام هو كلام يتوجّه به الله إلى محمد. وهكذا نجدُ أن النقل لم يحفظ المحتوى الذي طلب من محمد أن يُنطِقَ به، بل ما أمر الله به محمدًا أن يقوله.

والمعادلة التقليدية التي تتمُّ هكذا:

كلام الله لمحمد - كما نقله النصّ - = تلاوة أداها محمد. هذه المعادلة لا تجدي نفعًا ها هنا.

لا يُهم إدا، إذا كان تقديم هذا الأمر هو من عمل محمد الذي ردّد في وقت تالٍ ما كان قد سمعه فيما مضى من الله، أو هو من أصحابه بقصد بيان مصدر هذه الكلمات!!

ما يُهمنا هو أنّ هذه الصيغة قد وُضعت من جديد - نعم من جديد لأنّ النصّ الذي خاطب به محمد الكفار خالٍ منه - وُضعت في النصّ ليمنح السامع والقارئ بكلّ بساطة الانطباع بأنّه يتعلّق نصيبًا بما قاله الله [حقًا].

بيد أنني أنبه على ملمحٍ دقيق:

هذه الإضافات، إضافات الأجرأة، تلك التي تصف  $\alpha$  بأنه كلام الله، غير حاضرة في النصوص الأقدم زمنًا، ففعل الأمر لا يظهر حقًا إلا في السور (١٨، و٢٠، و٢١، و٢٢) حسب الأزهر، (٤٤، و٤٥، و٤٦، و٤٧) بحسب نولدكه. وهكذا، وفي اللحظات الأولى للنص، لم يكن التبليغ النصي لمضمون هذا الذكر  $\alpha$ ، وهذا الدعاء  $\alpha$  مانحًا إيّاها وضع كلام مباشرٍ من الله، لم يكن هاجسًا من هواجس المؤلف<sup>(١)</sup>.

يخلع هذا الأخير هذا الوضع فقط على المقاطع  $\beta$  المصحوبة بأوامر لا تمهد للنص.

ثم إن تبليغ هذا المضمون مع منحه سلطة كلام إلهي سيغدو مهمًا بالنسبة إليه، أو بالنسبة إلى أي واحد أعاد وضع الأوامر في النص.

بتعبير آخر، لقد حدث تحوّل يتعيّن اكتشافه في الفكرة الرئيسة المخاطب بها: لقد انتقلت من (الله أمر محمد بذكره وبذكر فعله، والنطق بدعاء) إلى (الله هو الذي أملى هذا الذكر أو هذا الدعاء على محمد بالضبط). و(النص الذي يستمعون إليه الآن هو هذا الذكر أو هذا الدعاء بالضبط).

(١) أشتغل كلمة مؤلف استعمالاً محايداً للدلالة على مصدر النص، دون الخوض في مسألة هوية النص.

هكذا يتجاوز النصُّ المهمَّةَ الأصلية كما خُوِطِبَ بها محمدٌ أوَّلَ مرة، فبدل أن يتوجَّه إلينا الذِّكْرُ نحن المستمعين - على غرار محمد الذي كان عليه أن يتوجه بالذِّكْرُ إلى محيطه - فإنَّ النصَّ يوجَّه إلينا هذا الذِّكْرُ مصدرًا بفعل الأمر الذي يتمثَّل مفعوله في إظهار أنه يتعلَّق بأقوال الله التي ألقاها إلى محمد.

ستظهر بدءًا من هذا الزمن الثاني إرادةٌ أخرى أكثر مباشرة لهذا الذِّكْرُ.

هذه الأجرأة تؤسِّس مصدرَ تلاوات محمد، ومن ثمَّ وَضَعَهَا، والتقدير والطاعة للذين يجِبَان على القارئ والسامع نحوها.

إنَّ غَايَةَ النصِّ - كما في الروايات - هو ألا تُبَلِّغ الرِّسَالَةَ الإلهية (الذِّكْرُ)، إلا وتُبَلِّغ معها في الآن نفسه فكرةً أنَّ النصَّ ذا المصدر الإلهي يبيِّن حجَّيته.

وعلاوة على ذلك، وفي نهاية المرحلة، نجدُ أنَّ مضمون الذِّكْرُ - الذي يَصِفُ، ضمن ما يصف، إرادة الله بأن يُصغى لكلامه، وتراعى أفعاله، تحت طائلة العقاب - يُسَعْفُ شيئًا فشيئًا وضمنيًا بالتعبير عن إرادة الله بأن يكون الذِّكْرُ الحالي الذي يليه محمد محلَّ الرعاية والتقدير أيضًا.

ولكي تؤدِّي وظيفتها؛ فإنَّ أجرأة  $\beta$  لا تفتأ - وعلى نحو مُفارق - تجتذب إليها عناصر من النصِّ  $\alpha$ ، والتي تستفيد منها بدورها وضعًا وهياً.

وهكذا، وفي نِهَآيَةِ هذه المرحلة الأقدم من مراحل التطوُّر الزمني للنصِّ، يكون إرساء فكرة أن (هذا الجزء من النصِّ هو خطاب الله بالضبط) قد تنامى!

الحاصل أنَّه بفضل النصِّ  $\beta$ ، و فقط في مرحلة ثانية، نجدُ النصِّ  $\alpha$  قد وصف بأنه كلام مباشر من الله، وذلك رويدًا رويدًا.

صارت هذه النتائج مُمكنة بفضل التمييز الذي أجرته على العينات الأقدم للمصحف بين النصوص  $\alpha$ ، و  $\beta$ . كما سمحت لي هذه التفرقة بتحليل مآل التطور الزمني للنصِّ.

## خلاصة:

لقد عَرَضْتُ هنا الخُطُوطَ العَرِيضَةَ لتحليلي لحديث القرآن عن نفسه في السور المكية الأولى، وهو التحليل الذي تأسس على فرضية تطوّر النصّ دون تعديلات لاحقة، وحسب الترتيب الزمني للأزهر ونولدكه رغم محدوديتهما.

سَمَحَ لي هذا التحليلُ بملاحظة وجود مرحلتين داخل هذه المرحلة:

- يتعلق الأمر، في مرحلة أولى، بشخصية يَجِبُ عليها النطق بذكر يُراد به التحذير من الجهل بقدره الله المطلقة، ويجب عليها النطق بدعاء شعائري.  
- في مرحلة ثانية، وعلى نحو سريع نسيئاً، صار النصُّ يعبر عن فكرة جديدة: فكرة أنّ هذا الذِّكْرَ وهذا الدعاء قد أُلْقِيَ من قِبَلِ الله، وأنهما يَتَجَلَيَانِ في النصّ نفسه حرفياً.

كما أبرزتُ أنّه ليس ثَمَّة في هذه المرحلة إلا النصّ  $\alpha$  - والنصّ  $\beta$  حين ينتظم أوامر - الذي يوصف بأنه كلام الله.

هذا التعريف لا يمتدّ إِذَا إلى مجموع النصّ، خلافاً للنتائج المستخرجة من تحليل متزامن للقرآن (كما يقع في الغالب في التفسير الديني).

يمكن أن نُصَيِّفَ إلى هذه النتائج تلك المستخرجة من التحليل خلال المراحل التالية<sup>(١)</sup>:

يُطبَّق - في نهاية التطور - خطابُ الأجرأة على مجموع النصِّ، بما فيه النصِّ  $\beta$  نفسه.

نجد أنفسنا إذاً بعيدين عن ما تُحدِّث به اللحظات الأولى للنصِّ من علم - علم الله الذي يأمر بالذِّكر والدعاء، والأخذ بيد المحيط لكي يتذكَّر وجود الله وفعله.

إنَّ حديث القرآن عن نفسه في مرحلته النهائية بعيدٌ جدًّا عن ما كان عليه في البدايات.

وقد استقرَّت بالتدرُّج سُلطة ما فتئت تتبلور أكثر فأكثر<sup>(٢)</sup>.

لعلَّنا نَسْتَطِيعُ أن نقول: إنَّ الأوامر الصادرة من الله قد جَرَى التعبيرُ عنها في المراحل اللاحقة، وبالمهارة التي بلورها النصُّ قصد إثبات أن جزءًا من النصِّ هو كلام ألقاه الله بالضبط، ثم قصدَ بناء فكرة أن النصَّ كله  $\alpha$  و  $\beta$  هو كلام الله بالضبط.

(١) انظر: بواليفو: Le Coran par lui-même، مرجع سابق، ص ٤٤١-٥١٥.

(٢) نفسه، ص ٥١٧.

يُمْكِنُ وَضْعُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فِي تَوَازٍ مَعَ دِرَاسَةِ نِيكُولَاي سِينَاي<sup>(١)</sup> Nicolai Sinai<sup>(٢)</sup> بِخُصُوصِ الظُّهُورِ الزَّمَنِيِّ، فِي الْأَجْزَاءِ الْأَقْدَمِ مِنَ النَّصِّ، لِفِكْرَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ يَجِدُ مَصْدَرَهُ فِي كِتَابِ سَمَاوِي، تِلْكَ الْفِكْرَةُ الَّتِي سَمَّاها الْبَعْدُ «الْجِينِي» la dimension génétique لحديث القرآن عن نفسه.

وَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا مِنْذُ الْبَدَايَةِ، ثُمَّ إِنَّ التَّلَاوَاتِ الْمَوْصُوفَةَ بِكَلِمَةِ (ذَكَر) صَارَتْ تُعَرَّفُ بِأَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنْ كِتَابِ سَمَاوِي.

وَهَكَذَا تَتَّفَقُ نَتَائِجُنَا حَوْلَ النَّقْطَةِ التَّالِيَةِ:

إِنَّ النَّصَّ يُطَوَّرُ خَطَابًا يَسْعَى عَلَى نَحْوِ تَدْرِيجِي إِلَى تَأْسِيسِ حُجَّتِهِ.



(١) انظر:

Sinai, Nicolai, «Qur'anic self-referentiality as a strategy of self-authorization», in Wild, (éd.), Self-Referentiality in the Qur'ān ., Wiesbaden, Harrassowitz, 2006, pp.103–134.

(٢) باحث ألماني، أستاذ الدراسات الإسلامية بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد، حاصل على

الدكتوراه من جامعة برلين الحرة بألمانيا، يتركز اهتمامه في القرآن والتفسير واللاهوت الإسلامي، له  
عديد من المؤلفات في هذا السياق، منها:

- كتاب الإسلام المقدس، أهم الحقائق عن القرآن الكريم، ٢٠١٢.

- الحديث والتفسير: دراسات في تفسير القرآن المبكر، ٢٠٠٩.

- القرآن، مقدمة تاريخية نقدية، ٢٠١٧.

فضلاً عن عديد المقالات والدراسات حول التفسير والقرآن. (قسم الترجمات).

## قائمة المراجع:

- Le Coran : Texte arabe et traduction française par ordre chronologique selon l'Azhar avec renvoi aux variantes,aux abrogations et aux écrits juifs et chrétiens,par Aldeeb Abu-Sahlieh,SamiAwad,Vevey,Editions de l'Aire,2008,680p.
- Anne-Sylvie Boisliveau, Le Coran par lui-même. Vocabulaire et argumentation du discours coranique autoréférentiel, Leiden, Brill, 2014, 432 p.
- Cuypers,Michel,Gobillot,Geneviève, LeCoran, Paris,Le Cavalier Bleu (coll.Idées reçues ),2007,126p.
- — ,«Structures rhétoriques des sourates 85 à 90», Annales Islamologiques ,35,2001,pp.27–100.
- Madigan, Daniel A., The Qur'ān's self-image: writing and authority in Islam's scripture, Princeton, Princeton UP,2001,236p.
- Nöldeke,Theodor, Geschichte des Qorans ,1860.(Révisé par Schwally,Friedrich, ergsträsser,Gotthelf,Pretzl,Otto,Leipzig,1909–1938.Réédité à Hildesheim, Georg Olms Verlag,2005.
- Robinson,Neal, Discovering the Qur'an:a contemporary Approach to a Veiled Text , Washington D.C.,George town University Press,2003,332p.
- Sinai,Nicolai,«Qur'ānic self-referentiality as a strategy of self-authorization»,in Wild,(éd.), Self-Referentiality in the Qur'ān ,, Wiesbaden, Harrassowitz, 2006,pp.103–134.
- Wild, Stefan, Self-Referentiality in the Qur'ān ,Wiesbaden, Harrassowitz, 2006.